

فورين بوليسي: روسيا هي الخاسر في الحرب بين إسرائيل وحماس



نشرت مجلة فورين بوليسي تقريراً للباحث بيتر شرودر يستعرض فيه كيف ستخرج روسيا كواحدة من الخاسرين في الحرب بين إسرائيل والفصائل المقاومة في غزة.

يستحضر الكاتب في مستهل تقريره مشاركته في مناقشة مفتوحة في خريف عام 2012 في السفارة الأمريكية في موسكو حول دور روسيا في الشرق الأوسط، مشيراً إلى أن موسكو في ذلك الوقت بالضبط بدأت في الظهور من جديد باعتبارها لاعباً رئيساً في سوريا وفي جميع أنحاء المنطقة.

واليوم، يمر نفوذ روسيا في الشرق الأوسط عند نقطة انعطاف أخرى. فبعد أن تعثرت روسيا بسبب غزوها الكارثي لأوكرانيا، برز تراجع أهمية روسيا في المنطقة على نحو حاد بعد هجوم حماس على إسرائيل في 7 أكتوبر.

تساؤل التأثير الروسي

وبحسب الكاتب، وفي حين كانت موسكو تلعب دوراً محورياً في الدبلوماسية المحيطة بالحرب الأهلية في سوريا قبل 10 سنوات، فإن الدفع الروسي في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة من أجل وقف إطلاق النار في غزة لم يكتسب سوى القليل من الاهتمام. ويرمز هذا التناقض إلى نهاية عودة موسكو التي دامت عقداً من الزمن إلى المنطقة.

وحتى قبل استعادة الرئاسة الروسية في مايو/أيار 2012، كان فلاديمير بوتين عازماً على إعادة روسيا إلى دور بارز في الشرق الأوسط، وهو الدور الذي كان يعتقد على الأرجح أنه ضروري لكي تصبح روسيا قوة عظمى.

وفي انتقاده لقرار الرئيس ديمتري ميدفيديف آنذاك بالامتناع عن التصويت على قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الذي يجيز استخدام القوة في ليبيا، والذي شبهه بوتين بالحروب الصليبية في العصور الوسطى، بدا عازماً على منع الغرب من إطلاق يده مرة أخرى. ومع اندلاع الحرب الأهلية السورية في عام 2011 واشتدادها في عام 2012، اتخذ الكرملين موقفاً متشدداً يعارض أي إجراء للأمم المتحدة، خوفاً من تكرار الأحداث في ليبيا.

النفوذ الروسي في المنطقة

وفي خضم الحرب السورية، وحسب ما يضيف الكاتب، رسمت موسكو مسارها نحو أهمية متجددة في الشرق الأوسط. وقام بوتين بأول خطوة كبيرة له هناك في سبتمبر 2013. ومع استعداد الولايات المتحدة للتدخل المسلح بعد تجاوز النظام السوري الخط الأحمر الذي أعلنه الرئيس باراك أوباما علناً واستخدام الأسلحة الكيميائية ضد شعبه، ابتكر بوتين خطة جديدة؛ تسوية دبلوماسية، إذ وعدت روسيا بالمساعدة في القضاء على ترسانة الأسلحة الكيميائية السورية.

وبعد عامين، عززت روسيا موقفها المتجدد في المنطقة من خلال التدخل العسكري في سوريا. وفي أقل من عام، قلبت قوات موسكو مجرى الحرب وأمنت حكم الدكتاتور السوري بشار الأسد، وهو نجاح سيستثمره بوتين في نفوذه في جميع أنحاء المنطقة.

ومع قيضتها القوية على سوريا، أصبحت روسيا مركزية في الدبلوماسية الإقليمية من أنقرة إلى الرياض إلى القاهرة. ومن خلال العمل مع إيران وحزب الله في ساحة المعركة في سوريا، بدأت علاقات موسكو مع طهران في الدفء.

ومع اضطرارها إلى الأخذ في الاعتبار القوات العسكرية الروسية المجاورة - وخاصة وحدات الدفاع الجوي الروسية التي من المحتمل أن توقف القوات الجوية الإسرائيلية عن العمل - اشتبكت إسرائيل مع موسكو بشكل متزايد. وسعى العراق ومصر إلى التعاون مع الاستخبارات الروسية ومكافحة الإرهاب. وسرعان ما بدأت القوات المدعومة من روسيا في الوصول إلى ليبيا للتدخل في تلك الحرب الأهلية أيضاً.

استخدمت موسكو دخولها الجديد إلى المنطقة ل طرح نفسها باعتبارها بديلاً للولايات المتحدة، مستفيدة من السخط تجاه واشنطن لتعزيز نفوذها. وفي تركيا، استفادت موسكو من تصورات الدعم الغربي للانقلاب الفاشل ضد الرئيس رجب طيب أردوغان في عام 2016، فضلاً عن الاشتباكات المستمرة حول التعاون الأمريكي مع القوات الكردية في سوريا التي تعتبرها أنقرة جماعات إرهابية.

وفي مصر، استخدم بوتين مخاوف إدارة أوباما بعد الإطاحة بالحكومة المنتخبة ديمقراطياً بقيادة الإخوان المسلمين على يد الجيش المصري في عام 2013 لتطوير علاقات دافئة مع الرئيس المصري الجديد عبد الفتاح السيسي. وفي إسرائيل، استغل بوتين العلاقة الباردة بين أوباما ورئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو وسعى لتعزيز العلاقات مع إسرائيل.

وفي المملكة العربية السعودية، راهن بوتين مبكراً على ولي العهد الطموح محمد بن سلمان، إذ صافحه بشكل واضح في قمة مجموعة العشرين في عام 2018، بعد شهر واحد فقط من مقتل الصحفي جمال خاشقجي على يد عملاء الحكومة السعودية.

تفكك تدريجي للنفوذ

ويلفت الكاتب إلى أن نهج موسكو القائم على المصالح والدبلوماسية الماهرة ساعد في التغلب على الانقسامات الإقليمية بنجاح. وكانت السياسة الروسية واقعية، وغير مرتبطة بإيديولوجية أو قيم مثل الديمقراطية. وتمكنت روسيا من تحسين العلاقات مع إيران وإسرائيل والمملكة العربية السعودية في الوقت نفسه. وتمكنت من إشراك الحكومة التركية والجماعات الكردية في سوريا، وتجنب براءة الانتقادات التي وجهتها أنقرة إلى واشنطن.

ومع ذلك، أدى الغزو الروسي لأوكرانيا في فبراير 2022 إلى تفكك تدريجي ل نفوذ الكرملين في الشرق الأوسط. أولاً، شوه الهجوم الروسي غير المبرر مكانتها الدولية، مما جعلها بديلاً أقل جاذبية للعب ضد واشنطن.

فالقاهرة، على سبيل المثال، التي تواجه ضغوطاً من واشنطن، وافقت على وقف شحنات الأسلحة المخطط لها إلى روسيا والتي كانت ستدعم حربها في أوكرانيا. وبحسب ما ورد تجنبت أنقرة شراء دفعة أخرى من نظام الدفاع الجوي الروسي أس-400، ومن المرجح أن تستنتج أن اللعب بورقة روسيا مع واشنطن أصبح الآن أقل مصادقية وفعالية.

كما عكس نفوذ موسكو في علاقاتها مع الدول الرئيسية في المنطقة. وفي حين تمكنت روسيا من فرض عقوبات مؤلمة على تركيا رداً على إسقاط الأخيرة طائرة مقاتلة روسية في عام 2015 وإجبار أردوغان في نهاية المطاف على الاعتذار، فإن روسيا تعتمد الآن على تركيا كقناة لنقل البضائع للتحويل على العقوبات الغربية.

وتوجه الطائرات الروسية الآن عبر إسطنبول ودي لتجنب قيود المجال الجوي الأوروبي. وتشتري موسكو طائرات مسيرة إيرانية الصنع، بل وتقوم

بناء مصنع لإنتاج طائرات مسيرة مرخصة من إيران في روسيا.

وأخيراً، أضعفت موسكو وجودها العسكري والأمني في الشرق الأوسط. وبينما لا تزال روسيا تحتفظ بقاعدة بحرية وجوية رئيسة في سوريا، فقد خفضت بعض قواتها ومعداتها هناك لدعم العمليات العسكرية في أوكرانيا.

ولتغذية آلة الحرب المتعثرة، قامت روسيا بتجنيد مقاتلين سوريين. وعلى الرغم من أن روسيا تحافظ على وجودها في ليبيا من خلال ما كان يُعرف بمجموعة فاغنر شبه العسكرية، إلا أنها أفادت أيضاً أنها أعادت نشر قوات من المجموعة للمساعدة في القتال في أوكرانيا. كما أن قدرة روسيا على إبراز القوة في المنطقة مقيدة أيضاً بسبب حقيقة أن موسكو ستواجه ضغوطاً شديدة لتعزيز وجودها في أي أزمة أو في حالة تعرض قواتها هناك للتحدي، نظراً للالتزامات الروسية في أوكرانيا.

ويُرجح الكاتب أن يكون هجوم حماس والرد الإسرائيلي الحاد بمثابة نقطة اللاعودة لنفوذ روسيا المتضائل في الشرق الأوسط. وكانت العلاقات بين روسيا وإسرائيل قد توترت بالفعل بسبب الغزو الروسي لأوكرانيا، ولكن من المرجح أن استجابة بوتين للأزمة في غزة جعلت الأمور أسوأ.

امتنعت موسكو عن إدانة هجوم حماس صراحة وألقت باللوم على السياسة الأمريكية. ولم يمر تحفظ موسكو في التأثير على الجانب الإسرائيلي دون أن يلاحظه أحد، إذ ظهر سياسي من حزب نتنياهو على التلفزيون الرسمي الروسي لانتقاد رد فعل روسيا. وفي حين أن بوتين قد أضر على الأرجح بعلاقاته الشخصية مع نتنياهو، فمن المرجح أن تتدهور العلاقات الثنائية أكثر إذا ترك الأخير منصبه نتيجة للأزمة في غزة.

ومن المرجح أيضاً أن تتبدد أهمية موسكو السابقة باعتبارها وسيطاً بين الجماعات الفلسطينية. وقد امتنعت روسيا عن الاعتراف بحماس كمنظمة إرهابية وسعت إلى تسهيل المصالحة بين الجماعات الفلسطينية كخطوة رئيسة نحو السلام وإنشاء دولة فلسطينية.

وقد زار مسؤولو حماس موسكو عدة مرات خلال العقد الماضي، بما في ذلك الشهر الماضي فقط. ولكن حتى لو تمكنت حماس من النجاة من الغزو البري الإسرائيلي المستمر لغزة، فإن المصالحة بين الفلسطينيين قد لا تشكل أولوية لعملية السلام في الشرق الأوسط في المستقبل المنظور.

وعلى الأرجح أيضاً أن تجعل الحرب بين إسرائيل وحماس من الصعب على روسيا التعامل مع المنافسات الإقليمية، لا سيما في ضوء علاقاتها الدافئة مع طهران. وفي حين أن موسكو تفضل على الأرجح تجنب الانحياز إلى جانب بين إسرائيل وإيران، فإن محاولات الحفاظ على الحياد وسط الصراع المتصاعد ربما تؤدي فقط إلى توتر مع كليهما. وإذا اضطرت موسكو إلى الاختيار، فربما تقرر موسكو ذلك استناداً إلى وجهة نظرها بشأن تأثير الحرب في أوكرانيا، وهو الإطار الذي ينظر من خلاله بوتين إلى كافة التحديات الدولية الآن.

وسيحتمل الكرملين إلى أن يقرر ما إذا كانت الأسلحة الإيرانية أكثر أهمية لروسيا – أو ما إذا كانت الأولوية هي الحفاظ على النفوذ لدى إسرائيل من أجل ثنيها عن تقديم الأسلحة إلى أوكرانيا.

ويرى الكاتب أن تصعيد الأزمة إلى معركة إقليمية أوسع نطاقاً تشمل إيران بشكل مباشر – وهو الأمر الذي يبدو غير مرجح الآن ولكنه يظل ممكناً – من شأنه أن يجعل عجز روسيا واضحاً للجميع. وعلى الرغم من قواعدها في سوريا، فإن الوجود العسكري الروسي غير كافٍ لتشكيل الأحداث.

وأكد الكاتب أن الحرب بين إسرائيل وحماس هي تطور مرحب به لموسكو، لأنها تصرف الانتباه الدولي عن الحرب الروسية في أوكرانيا وربما تجبر الولايات المتحدة على اتخاذ قرارات بشأن إعطاء الأولوية للمساعدة الأمنية لإسرائيل أو أوكرانيا. كما أدى دعم واشنطن الكامل للعمليات العسكرية الإسرائيلية إلى بعض المقارنات غير المريحة مع الهجمات الروسية في أوكرانيا. لكن أهداف واشنطن الخاصة مع العالم العربي أو الجنوب العالمي الأوسع لا تلعب بالضرورة لصالح موسكو.

في نهاية المطاف، يمكن للأزمة التي عجلت بهجوم حماس الواسع النطاق على إسرائيل أن تساعد في تحديد مستقبل الشرق الأوسط. ومع ذلك، من غير المرجح أن يكون لموسكو دور كبير في تشكيلها – إذا كان لها أي دور على الإطلاق. من غير المحتمل أن يكون هناك مؤتمر مدريد آخر. وفي حين كانت روسيا محورية في المناقشات حول الحرب الأهلية السورية قبل عقد من الزمان، فمن المرجح أن يخرج المسار المستقبلي للشرق الأوسط من أزمة غزة دون أي مساهمة كبيرة من موسكو.